ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الكاهنة وموقفها من الوجود الإسلامي ببلاد المغرب.

Elkahina, and its Position via of the Islamic Presence in the Maghreb.

د. بوشريط أمحمد صص35-57

Boucherit M'hamed

أستاذ محاضر أ

جامعة مصطفى اسطمبولي –معسكر- (الجزائر)

mhamed.bouchrit@univ-mascara.dz

تاريخ استقبال المقال: 2018/12/28، تاريخ المراجعة: 2019/02/11 تاريخ القبول: 2019/04/08.

الملخّص: تعتبر الكاهنة إحدى النّساء المغربيات التي عاصرت الفتوح الإسلامية ببلاد المغرب، والتي حاولت جاهدة لوقف زحف المسلمين نحو هذه البلاد، أما من حيث شخصية هذه المرأة البربرية الغامضة، فقد اختلفت المصادر في التعريف بهذه القائدة، ودارت حولها العديد من التفسيرات والتأويلات حول تلك التسميات التي وسمتها بها المصادر التي أرّخت للفتوح الإسلامي لبلاد المغرب الإسلامي، والتي ارتبطت ارتباطا وثيقا بشخصيتها.

في هذه الورقة، سأحاول مناقشة بعض الجوانب التي التصقت بشخصيتها، وموقفها من الفتح الإسلامي لهذه البلاد، وهل بقيت متمسّكة بموقفها الأوّل الرّافض للوجود الإسلامي بها؟ مع القيام بتحليل بعض ما ورد على لسان الكاهنة من أنّ العرب الفاتحين أتوا إلى هذه البقاع من أجل خيراتها، ففي هذا المقام سأحاول تحليل هذه الجملة الاقتصادية لنفي ما ادعته الكاهنة من أنّ العامل الاقتصادي كان سببا لهذه الفتوح، وأنّ السبب الديني المتمثّل في نشر الدين الإسلامي بهذه الأرض لم يكن السّبب الرئيس. لنخرج في الأخير من أنّ الكاهنة فهمت حقيقة هؤلاء المسلمين القادمين من أبعد الأصقاع.

الكلمات المفتاحية: الكاهنة؛ الفتوح؛ التكتيك العسكري؛ الشّخصية؛ الزّحف؛ التحرّكات؛ أسطورة؛ الخراب؛ الاستراتيجية.

***Abstract**: Elkahina was one of the Maghreb women who moved to the Islamic conquests (Foutouhat) in the Maghreb, trying to hardly stop the march*

of Muslims towards this country. As for the personality of this mysterious barbaric woman, the sources differed in the definition of this leader. There were many explanations and interpretations about these names that she referred to as the sources of the Islamic conquest in the Maghreb were closely related to her personality. In this paper, I will try to discuss some aspects that stuck to her personality, and her position on the Islamic conquest in this country. So, did she remain steadfast in her first position rejecting the Islamic presence? I will try to analyze this economic sentence to deny the priest's claim that the economic factor was the reason for this opening, and that the religious aspect was the reason of spreading the Islamic religion, which was not the main reason. Let us conclude in the end that the Elkahina understood the truth of these Muslims coming from the farthest corners.

Key Words: *The Priestess; Crucifixions; Military Tactic; Personal; Crawl; Moves; The damage; The strategy ; The legend.*

مقدمة: يعتبر تاريخ الفتوح عند المسلمين حافلا بالأحداث التاريخية التي تحسب لصالح المسلمين منذ أن بدأوا بفتح مصر باعتبارها البوابة الرّئيسة لاستمرار الفتوح إلى بلاد المغرب الذي كان يقطنه البربر بجميع فئاتهم، سواء أكان البتر منهم أو البرانس، وعندما أتيحت الفرصة للعرب المسلمين القادمين من شبه الجزيرة العربية التي انتشر فيها الإسلام، لم يبق هؤلاء الفاتحين قابعين بهذه الدّيار، لأنّ مهمة المسلم هو القيام بكلّ ما في وسعه من أجل نشر الرّسالة المحمدية التي يعث بها الله نبيّه محمد (صلّى الله عليه وسلّم)، وهذا الرّسالة هي نشر الإسلام بمبادئه السّمحاء، وكان للمسلمين الفاتحين ما أرادوه، فعند انتهائهم من الفتوح بمصر وباقي البلاد الأخرى، اتجهت أنظارهم إلى بلاد المغرب وتحقّق ما كانوا يصبون إليه، إلاّ أنّ فتح هذه البقاع لم يكن من السّهولة بمكان، وذلك بسبب عدّة عوائق واجهت هؤلاء الفاتحين، نخصّ بالذكر منها: قوّة وبأس من سيواجهون من البربر باعتبارهم قوم يتميّزون بجلدتهم وصبرهم وفروسيتهم، وهذا ما لا يمكن إنكاره.

هذه الفتوح لا محالة بأنّها ستصطدم بمواجهات عسكرية من طرف سكان هذه البلاد، وكان على رأس هذه المواجهة امرأة ثار حولها الكثير من الجدال حتى اعتبرت مرأة غامضة قلّ ما نتصفحّه في المصادر التي تروي لنا مثلها، هذه المرأة هي الكاهنة التي لم تعرف في بادئ الأمر حقيقة هؤلاء المسلمين، لذلك كلّه واجهتهم بكلّ ما تملكه من قوّة لمنعهم من التوّغل في هذه البلاد، فأعدّت لهم العدّة لتحقيق هذا

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الغرض، والذي بسببه عملت بكلّ ما في وسعها لصدّه، وتبقى بلاد المغرب إقليما تابعا لها ولقومها.

في هذه الورقة البحثية، سأحاول تسليط الضوء على تلك الهالة التي أحيطت بهذه المرأة الغامضة، من هي؟ ولماذا ألصقت بها عدّة ألقاب؟ وما هي الاستعدادات التي قامت بها من أجل الوقوف في وجه الزّحف الإسلامي لبلاد المغرب؟ وهل بقيت على نفس الرّأي المتصلّب ضد المسلمين أم تراجعت عن ذلك؟ وإن كانت الإجابة بالتراجع، فلماذا غيّرت من موقفها. تلك هي جملة من التساؤلات، سأحاول الإجابة عنها من خلال ما خطّته أيدي المؤرّخين، والتي أسالت الكثير من الحبر الأسود على الورق الأبيض، لتصبح الإجابة على هذه التساؤلات واضحة كوضوح هذا الحبر على هذه الورقة البيضاء.

1- التعريف بالكاهنة: لقد تعدّدت الآراء، واختلفت التوجّهات حول هذه الشّخصية الغامضة التي طبعت تاريخ المغرب، فالكلّ أدلى بدلوه، وأعطى رأيه في تعريفه لها، وأهم التسميات التي ألصقت بها، ولهذا سأعتمد على أهم المصادر التي ترجمت لها، وأدلت بدلوها.

أ- اسمها: اختلفت آراء حول الاسم الذي أطلق على هذه المرأة، كما اختلفت فيرسم الكلمة ممّا أدى إلى اختلاف مفهومها، وإن كان في بعض الأحيان يؤدي إلى مفهوم آخر، وتارة أخرى يكون غامضا، فمن المؤرّخين الذي اعتنوا بذكر نسب الكاهنة، نخصّ بالذكر منهم:

* ابن خلدون عبد الرّحمن: ورد نسبها على هذا النّحو: "**دُهيا بن ماتية بن تيفان**".[1]

* ابن أبي دينار: حيث يذكر اسمها على هذا النّحو: "دامية بنت ينفاق".[2]

* يحي بوعزيز: لم يذكر الاسم الكامل والمتداول في مختلف المصادر التي تعرّضت له، بل اكتفى بذكر اسمها مختصرا، وذكر ما مفاده "**امرأة تدعى دهيا**".[3] وهو نفس ما ذهب إليه الباحث عبد العزيز بنعبد الله.[4]

* إبراهيم التهامي: ذكر بأنّ هناك امرأة كانت تقود البربر، اسمها "**داهية**"،[5] فعند ملاحظتنا لما ورد عند من سبقوه، فلم ترد هذه الكلمة على أنّها اسم للكاهنة، بل هي صفة من الصفات التي كانت تميّزها، فداهية من الدّهاء ولا علاقة له باسمها. وهذا

ما ورد عند بنعبد الله عندما قال في معرض حديثه عنها: إنّ الكاهنة كانت داهية تتزعّم جراوة،[6] فكلامه عن الكاهنة كان واضحا ومفهوما، باعتبار هذه الكلمة مشتقة من الدّهاء.

*حسين مؤنس: في سياق حديثه عن فتح المغرب، تعرّض إلى ترجمة موجزة لهذه المرأة، فذكر أنّ اسمها على هذا النّحو: "**لا نعرف نحن اسمها على وجه الدّقة فإنّ بعض المؤرّخين يسمونها داهيا بنت واهيا**".ثم يستطرد في الكلام، حيث يذكر بأنّ هذه التسمية مأخوذة من القصص الشعبي ولا شك".[7]

وفي مجلّة المعهد المصري، يذكر ليفي بروفنسال،واعتمادا على رواية عبيد الله صالح بن عبد الحليم، أنّ اسم الكاهنة وردعلى هذا النّحو: "**داهية بنت تاهيت**".[8]

أما الثعالبي فيذكرها على هذا النّحو: "**دِهْيَة بنت تابتت**"،[9] ثم يشير إلى تاريخ ابن خلدون الذي لم يذكرها بنفس الرّسم الذي ورد عند الثعالبي.

ب- سبب تسميتها بالكاهنة: تعرّض المؤرّخون إلى السّبب الذي أدى بالمصادر التي ترجمت لها إلى وصفها بهذه الصفة.

فهذا ابن الأثير يذكر بأنّ هذه الصفة التي ألصقت بها لأنّها كانت تخبرهم بأشياء من الغيب، ولهذا السّبب أطلق عليها اسم الكاهنة، لتكهنّها- بزعمهم- بمثل هذه الأمور الغيبية.[10]وهو ما قام بشرحه مقتبسا ذلك من ابن الأثير، فقال: بسبب اشتهارها بالسّحر والشعوذة[11]، وأنّها كانت تتنبأ بما سيجري في المستقبل.[12]

وهذا ما يؤكّده الميلي بأنّها استبدّت بقومها بما كان لها من المعرفة والكهانة ومعرفتها بالأمور الغيبية وأحوال قومها، وعواقب أمورهم.[13]

أما يحي بوعزيز فقد ذكر أنّ سبب نعتها بالكاهنة ادعاؤها معرفة الأمور الغيبية، ولالتزامها ببعض الطقوس الموسوية، ثم يضيف: "**على ما قيل**".[14] في حين ذكر التهامي كلمة الكاهنة دون التعقيب عليها.[15]

من خلال ما أورده المرحوم يحي بوعزيز بخصوص صفة الكهانة التي التصقت باسم دهيا هذه، أنّه لم يكن مقتنعا بهذا الطرح، وبخاصة أنّها نعتت بمعرفة الغيب، بدليل قوله: "**ادعاؤها**"، فهذه الكلمة تنبئ بما لا يدعو للشّك التوجّه الديني لمؤرّخنا، فالذي يعلم الغيب وما تُخْفي الصدور هو الله سبحانه وتعإلى، وما عداه، فهو جاهل

لعلم الغيب، بل وجاهل حتى الساعة أو اللّحظة التي يعيشها أي إنسان، وذلك مصداقا لقوله تعالى: {**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**}.[16] وقوله تعالى: {**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ**}[17]، وكذا قوله سبحانه وتعالى: {**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**}.[18] **وقوله: {وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}.**[19]

هذه جملة من أي القرآن الكريم التي تثبت بأنّ لا عالم للغيب والشّهادة سوى الله سبحانه وتعالى، فما عداه فهو كذب، تلك هي قناعة شيخنا يحيى بوعزيز، وإسلاميته في التعاطي مع مثل هذه النّصوص التي احتوتها مضان المصادر والمراجع.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يكتفي بعرض ما وُجِدَ في المصادر، بل يعطي أسبابا أخرى على التوجّه الديني للكاهنة، وذلك عندما ذكر بأنّها كانت تمارس بعض الطقوس الموسوية.

أما عند كلّ من الرّقيق القيرواني وابن عبد الحكم، فقد اكتفى كلّ واحد منهما بذكر اسم "**الكاهنة**" دون تعليق على ما ورد بخصوص هذه التسمية التي وردت في بعض المصادر التي ترجمت لها.[20]

أما إبراهيم التهامي، فقد تطرّق للاسم دون التعرّض لمعناه، فقال في هذا الصدد: "**امرأة... تلقب بالكاهنة**". ثم أضاف في الهامش قوله: "**لم أجد لها ترجمة، ولكن كلّ من تعرّض للحديث عن الفتح الإسلامي للمغرب ذكرها على أنّها زعيمة البربر، ثمّ قتلت...**".[21]

من خلال ما تقدّم ذكره، يتضّح لنا جليّا أنّ مؤرّخنا أراد أن يعطي بعض المبرّرات لعدم الإطالة في إعطاء تعريف عام وشامل للكاهنة، وكانت حجّته في ذلك سكوت المصادر والمراجع عن الإطناب في ذكرها بالتفصيل، وبالتالي كلّ المعلومات التي تقع عليها أعيننا لا تشفي غليل الباحث لسبر أغوار هذه المرأة الغامضة.

هذا ما حاول الوصول إليه التهامي، وكانت تلك التفاتة طيّبة تدعو كلّ باحث متخصّص في بلاد المغرب قبل الفتوح وأثنائها لبذل الكثير من الجهد من أجل معرفة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

أسرار هذه المرأة الغريبة، ولكن يمكن أن نطرح تساؤلا حول هذه الإشكالية التي طالما أرّقت أقلام هؤلاء الباحثين، والمتمثّل في أنّ هذه المرأة هي أسطورة من أساطير بلاد المغرب، فألبست ثيابا غير ثيابها، وألصقت بها صفات لم تكن لتمتلكها بتاتا، ولم تكن جزءا من شخصيتها.[22]

كما وافق حسين مؤنس جميع هؤلاء في سبب نعتها بالكاهنة، حين قال: إنّ هذه الكاهنة هي امرأة ساحرة. لها قدرة على تعاطي أعمال السّحر، وتعاطي الكهنة والتنبؤ بما سيحدث.[23]

2- شخصية الكاهنة بين نسيج الخيال وواقعية الظرف: لقد حامت حول شخصية الكاهنة عدّة تساؤلات، إن كانت شخصية حقيقية أم من نسج خيال البعض الذي أراد أن يجعل منها أسطورة من أساطير بلاد المغرب، وقبل أن نصل إلى فصل المقال حول هذا الرّأي والرّأي الآخر، كان لزاما علينا أن نعرض بعض آراء المؤرّخين الذين تناولوا بالدراسة والتحليل هذه الإشكالية المستعصية والتي مسّت شخصية الكاهنة.

من هؤلاء الذين تطرّقوا لذلك، نخصّ بالذكر منهم: الباحث والمؤرّخ حسين مؤنس الذي تعرّض لذلك بنوع من التحليل والمقارنة وعرض آراء بعض من خاض في هذا الميدان، فهناك من اختلف حول خيالية وواقعية هذه المرأة، فمن هذه الآراء، سنتعرّض لبعض منها على سبيل المثال لا الحصر.

*الرّأي الأوّل: ويمثّله الطرف الرّافض لوجود هذه المرأة أصلا، فاعتبروها نسيج من خيال البعض، فمال هذا الفريق إلى إنكارها أصلا معتمدين على ما كان يشوب من أخبارها من مسحة أسطورية لا واقعية، وهذا ما ذهب إليه حسين مؤنس في كتابه "**معالم تاريخ المغرب**"، حين قال: إنّ المؤرّخين العرب صوّروا هذه المرأة في صورة هي أقرب إلى شخصيات أسطورية.[24]

من هؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب "**ليبو**" الذي زعم أنّ الكاهنة ما هي إلاّ البطريق "**يوحنا**"، وهذا ما يستنتج من قوله هذا: "**أحاط العرب- الذين يغرمون بالحديث غراما شديدا- قصة هذه الثورة بجو من الخيال، فيذهبون كما تزعم رواياتهم إلى أنّه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكّنت من هزيمة العرب أول الأمر، وهذه الكاهنة –كما استبان لنفر من أوثق العلماء- ليست إلا البطريق**

يوحنا نفسه؛ أظهره المؤرّخون في شكل امرأة لأنّه كان خصيا". ثم يضيف حسين قوله: أنّ ليبو أخذ هذا الرّأي عن "**أوتر**"، ولكن "**فورنل**" أكّد أنّ "**أوتر**" لم يقل بذلك بتاتا.[25]

*<u>الرّأي الثاني</u>: والذي مثّله جمع من المؤرّخين، حيث اتجهت آراؤهم نحو وجود هذه الشخصية المدعوة بالكاهنة، والدّور المهمّ الذي قامت به أثناء فتوح إفريقية، لكن شخصيتها وحقيقتها لا زالت غامضتين للعديد من أرّخ لهذه المرأة، ولا زالت في حاجة ماسة لمزيد من البحث والتنقيب، وإلى كثير من التوضيح والتفصيل.[26]

وعلى ضوء ما تقدّم ذكره حول وجود هذه المرأة من عدمه، وأنّها ليست شخصية حقيقية بل أسطورة كانت متداولة بين عامّة الشّعب، ولا وجود لهذه المرأة أصلا، بل كانت هي البطريق يوحنا. فقد ذهب جمع من الباحثين عكس هذا الرّأي، وردّوا على هذا الطرف النافي لوجودها على أنّ البطريق يوحنا وحملته مذكوران في الكتب العربية بوضوح إلى جانب الكاهنة، حيث أكّد "**فورنل**" أنّ "**ليبو**"اختلق على "أوتر" **ذلك**، وعلى حدّ قول مؤرّخنا حسين مؤنس: "**إذ لم يقل الرّجل منه شيئا**".[27]

3- الكاهنة ودورها في مواجهة الفتح الإسلامي:ظنّ الفاتحون المسلمون أنّ مقاومة البربر لهم قد انتهت، ونار ثورتهم أخمدت بعد تلك المواجهة التي جرت بين الطرفين في معركة سهل ممّس[28]، وهذا ما يفهم من نص الرّقيق القيرواني أثناء ولاية زهير بن قيس البلوي، وكان ذلك على لسان كَسيلَة[29]: "**إني أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها**"، وبهذه الموقعة قضي على أحد كبار قوّاد البربر، وهو كَسيلَة.[30]

في هذه المعركة تمّ احتلال مدينة قرطاجة من طرف الفاتحين، وقد أبلى فيها الفاتحون بلاءً حسنا، وهذا ما يفهم من قول ابن عذاري وابن الأثير، إذ ذكرا أنّ حسّان عند ورود القيروان اتجه نحو القيروان، ومنها إلى قرطاجة وكان يحكمها ملك الرّوم وكان أعظم من حكم هذه المدينة، وعلى الرّغم من كثرة عدد وعدّة الرّوم، قام بمنازلتهم ومحاصرتهم، وقتل منهم نفرا كثيرا الأمر الذي أدى بالرّوم للفرار بمراكبهم نحو صقلية وبلاد الأندلس.[31]

ظنّ الفاتحون بقضائهم على كسيلة أحد زعماء البربر، واحتلالهم لمدينة قرطاجة، قد خلا لهم الجوّ ولن يجدوا مقاومة أعنف من تلك التي واجهوها، إلاّ أنّ

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

أمرا مثل هذا لم يحدث، بل على العكس لم تنته المواجهة بين الطرفين، بل ستظهر مقاومة أخرى وهذه المرّة لن يكون القائد رجلا بل امرأة بربرية، ولن تكون هذه الأخيرة سوى الكاهنة.

أ- دورها في انكسار حسّان بن النّعمان: ما إن سمعت الكاهنة بتلك الانتصارات التي حقّقها حسّان وطرد فلول الرّوم، إلاّ وبدأت تتجهّز للقاء حسّان الذي لا مفرّ منه، ولكن هذه الاستعدادات التي جهّزت لها لم تكن محض الصدفة، والنتائج التي ستحقّقها لم تأت على سبيل الصدفة، وإنّما حضّرت وخطّطت لها للظفر بهذا الخصم العنيد، ولفهم ما جرى على ساحة الوغى، كان لزاما علينا تتبع استراتيجية الكاهنة التكتيكية والعسكرية التي اتبعتها حتى حقّقت مثل هذا الانتصار، والتي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

***<u>علم الكاهنة بتحركّات حسّان والاستعداد لمواجهته</u>:** كانت الكاهنة تتبع أخبار الفتوح الإسلامية من بعيد، وفي انتظار اللّقاء الموعود، جمعت إليها البربر البتر ووحّدت بين صفوفهم، فالتفوا من حولها، وبخاصة بعد تفرّق جمع البربر البرانس، وبعد تحقيق استراتيجية توحيد الصفوف بين فرع البتر، أخذت الكاهنة تتبع أخبار العرب الفاتحين، وتراقب كلّ تحرّكاتهم، وهي كامنة في مقرّها بجبال الأوراس، ومعتصمة بهذا الموقع المحصّن طبيعيا.[32]

أما بخصوص علم الكاهنة، أو عدم علمها بتحرّكات حسّان بن النّعمان، فيذكر حسين مؤنس: أنّ أغلب الظن كانت على علم بأنّ حسان سيتحرّك نحوها، والدّليل على ذلك، فما إن سمعت بقدومه مع جيشه إليها حتى رحلت لملاقاته بجيش كثير العدد والعُدَّة.[33] وهذا ما ذكره ابن عذاري بقوله: "وبلغ الكاهنةَ خبرُه، فرحلت من الجبل في عدد لا يُحصى، ولا يُبلغ بالاستقصاء".[34]

ولهذا خرج حسين مؤنس بهذا الاستنتاج، والذي مفاده: أنّ الكاهنة لو لم تكن تتوقّع وعلى علم بخروج حسّان نحوها، لما استطاعت في وقت وجيز أن تسير نحوه بهذا الجيش كامل العُدّة والعَدد، وفي الأخير حطّت رحالها بمدينة باغاية الممتنعة الحصينة.[35]

*<u>**الزّحف على مدينة باغاية**</u>: عندما سمعت الكاهنة بمقدم حسّان بن النّعمان، وأنّه يريد التحرّك إليها عن طريق هذه المدينة، استبقته إليها بعد أن جمعت من حولها العدد والعدّة، وهذا ما عبّر عنه الرّقيق القيرواني بقوله: **"وبلغ الكاهنة أمره**[36]، **فرحلت من جبل أوراس بعدد لا يحصى فسبقته إلى مدينة بغاية".**[37]

هذه النظرة الاستباقية التي اتبعتها الكاهنة تنمّ عن حقيقة القائدة التي خطّطت لمثل هذه المعركة، وهذا ما يشهد لها بأنّها كانت ذات نظرة ثاقبة، وبخاصة في الأمور العسكرية، وما يثبت على أنّ لها نظرة ثاقبة لما يجري من حولها والتي لا تصدر إلاّ من طرف قائد عسكريّ له دربة بأمور الحرب، إنّها لم تكتف بذلك، بل قامت بتهديم أسوار المدينة حتى لا يتمكّن حسّان بن النّعمان التحصّن بمدينة باغاية، وهذا ما ورد عند الرّقيق القيروان الذي قال: "**وهدّمت حصنها**[38]، **وظنّت أنّ حسان إنما يريد حصنا يتحصّن فيه**"[39]، وهو نفس ما ذهب إليه ابن عذاري بقوله: "**وظنَّت أنّ حسانا يريد مدينة ليتحصّن بها منها**".[40]

أما السّؤال الذي يطرح نفسه بشدّة، إضافة إلى موقع مدينة باغاية وحصانتها، هل كان ذلك هو السّبب الوحيد للخطّة الاستباقية التي اتبعتها الكاهنة في استيلائها على هذه المدينة؟ أم هناك أسباب أخرى هي التي جعلتها تستبق الأحداث، وتسيطر على هذه المدينة قبل أن يسبقها إلى ذلك حسّان بن النّعمان؟

لا يعتبر الموقع الممتاز للمدينة وحصانتها سببا وحيدا لسيطرتها عليها، بل هناك أسباب استراتيجية جعلتها تتبع مثل هذه الخطوة الاستباقية، والمتمثّلة فيما يلي:

- أرادت الكاهنة أن تكون على مقربة من مواطن قبيلة جراوة الأصلية والمتواجدة بمنطقة الأوراس.
- يمكن لها من هذه المواطن أن تحصل على المساعدة، وأن تطلب النجاة إذا استدعت الضرورة ذلك.
- مدينة باغاية هي بمثابة محرس جدّ هام، بحيث يُطلّ على مدخل جبال الأوراس.
- تخوّفها من أن تكون للفاتحين ضربة استباقية إذا ما هم قاموا بالسيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي الهام.[41]

بالرّغم من الاستراتيجية الناجحة التي اتبعتها الكاهنة حينما اختارت باغاية كمدينة حصينة والواقعة على سفح جبال الأوراس، وعلى حدّ تعبير مؤرّخنا حسين مؤنس "**تقوم من الجبال مقام الباب من الدار**"؛ **فهل ارتكبت الكاهنة خطأ استراتيجيا لم تنتبه إليه؟**

الإجابة بنعم، **فالخطأ الاستراتيجي** التي وقعت فيه هو هدمها لأسوار هذه المدينة عوض أن تقوم هي باستغلال هذا الموقع الاستراتيجي، باعتبار هذا الموقع- فيما مضى- استطاع أن يردّ في كثير من الأحيان هجمات العرب، وقد استعصي عليهم عدّة مرّات، فكان من باب أولى أن تتحصّن بهذا الموقع المحصّن والاحتماء من هجمات الفاتحين، وعلى حدّ قول حسين مؤنس، هذا دليل على أنّ الكاهنة كانت تحارب لوحدها بدون مشاركة الرّوم إلى جانبها، فلو كانوا إلى جانبها لنصحوها باتباع هذه الخطّة في حربها للفاتحين.[42]

***لقاء الكاهنة حسّان وهزيمته**: أخذت الكاهنة تحشد قواتها بمنطقة الأوراس متّبعة في ذلك استراتيجية جديدة التي تدخل ضمن خططها العسكرية، ألا وهي أن تنتظر إنهاك قوى حسّان من طرف الرّوم أثناء حربه لهم، وبعدها تقوم بمباغتته، وما كاد هذا القائد العربي الفاتح لهذه البلاد أن ينتهي من معركته مع الرّوم، حتى بادر إلى محاربة الكاهنة عملا بنصائح مقرّبيه، منها: أنّه إذا حارب الكاهنة وانتصر عليها وقتلها خلصت له البلاد من منافس قويّ، ويجد البربر أنفسهم أمام الأمر الواقع، وهذا ما ورد عند ابن الأثير في قوله: "إن قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك".[43]

عملا بهذه النّصيحة، وعدم ترك الفرصة للكاهنة. أخذ حسّان يتحيّن هذه الفرصة، فاختار لجيشه النزول بمكان ملائم في أعلى وادي مسكيانة[44] حتى يسهل عليه الحصول على الماء لتموين جيشه بالماء، وما كادت الكاهنة أن تسمع بذلك حتى لحقته آخر النّهار وعسكرت هي بدورها أسفل الوادي، وعلى حدّ تعبير الرّقيق القيرواني: **"وكان هو يشرب من أعلى النّهر وهي من أسفله".**[45]

لم يشأ أحدهما أن يبدأ بالقتال، وكان كلّ فريق يتربّص بالآخر في انتظار المعركة الحاسمة، وهذا ما يفهم من قول ابن عذاري: "فلما توافت الخيل، دنا بعضُهم من بعض، فأبى حسّان أن يقاتلها آخر النّهار، فبات الفريقان ليلتَهم على سرجهم".[46]

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

التقى الجمعان في الغد، فوقعت معركة حامية الوطيس بين الطرفين والتي أفضت بهزيمة حسّان بن النّعمان وجنوده، فوقع في صفوفه عدد من القتلى والجرحى نتيجة لشراسة هذه المعركة، وهذا ما يؤكّده ابن خلدون بقوله: "**فاقتتلوا اقتتالا شديدا، ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير**".[47] لم تكتف في إعمال القتل فيهم، بل قامت بأسر عدد من جنده بلغ الثمانين من أعيان أصحابه.[48]

اضطر حسّان للتراجع أمام الكاهنة التي أجبرته على الاندحار هو أصحابه إلى برقة، ولحق بطرابلس، وهذا ما يفهم من كلام ابن عبد الحكم: "**وأفلت حسّان، ونفذ من مكانه إلى أنطابلس فنزل قصورا من حيّز برقة، فسميت قصور حسّان**".[49]

4- الإرهاصات الأولى لسقوط الكاهنة: قبل الحديث عن انهزام الكاهنة، لا بدّ لنا من الوقوف عند بعض المحطات التي مهّدت لسقوطها، والتي كان السّبب الرّئيس في تراجعها وانهزامها، وكما يقول المثل الشعبي المتداول "**انقلب السّحر على السّاحر**".

أ- الكاهنة وسياسة الأرض المحروقة: بعد هذا الانتصار الذي حقّقته الكاهنة وتتبّعها لحسّان بن النّعمان إلى غاية إخراجه من حدود إفريقية، وبعد أن اطمأنّت على ملكها عادت أدراجها[50]، وبعدها أخذت تفكّر في خطّة أخرى لمنع العرب الفاتحين من معاودة الكرّة والرّجوع لمحاربتها مرّة أخرى.

هذه الخطّة تتمثّل أساسا في قطع خط الرّجعة على حسّان، والتي تعرف في التاريخ بسياسة الأرض المخرّبة (**سياسة الأرض المحروقة**)، ظنّا منها أنّ العرب دخلوا هذه الدّيار طمعا في ما تكتنزه أرضها من خيرات باطنية وظاهرية، فبعد امتلاك الكاهنة للبلاد حوالي خمس سنين[51] فكّرت في هذه الخطّة والمتمثّلة في قولها: "**إنّ العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنّما نطلب المزارع والمراعي[52]، فما نرى لكم إلاّ خراب إفريقية حتى ييأسوا منها،[53] ويقل طمعهم فيها**".[54] وقد أطلق المؤرّخون على هذا الخراب، **بخراب إفريقية الأول**-[55] بسبب شموليته.[56]

كانت فكرة الخراب التي طالت فكر الكاهنة، أنّها عندما تقوم بهذه الفعلة، وهي تخريب مراكز التمدّن، وإعادة البلاد إلى سابق عهدها، أي إلى طبيعتها الأولى وهي حالة الرّعي والبداوة، فإنّ العرب بعدها لن يفكّروا في غزو هذه البلاد مرّة أخرى.[57]

هذه الحركة التخريبية التي قامت بها، تنمّ عن حقيقة يجب الإشارة إليها، وهي دائما تدخل ضمن استرتيجية القوّاد في حروبهم ضدّ الطرف الآخر، هذه الحقيقة تكمن في مكوّنات جيش الكاهنة، فنظرة سريعة إلى هذا المكوّن نجده من **البتر**، ولذا نعتت حركتها هذه **بحركة بترية خالصة**، فمعنى ذلك أنّه لم يكن في مكوّنات جيشها أفراد من **البرانس**، وهذا له أهميته لأنّه سيغيّر كثيرا في مسار الحرب، والأحداث التي جرت بعدها، فالبتر هم من البدو، وأما البرانس فكانوا من أهل المدن وكانت اهتماماتهم بالصناعة، فهم إذن مستقرّون، ولهذا نجد هذه القبيلة كانت من المعارضين للكاهنة، وأما البدو البتر، فلم يكن يهمّهم هذا الخراب، فهم معتمدون في حياتهم على الحلّ والترحال مثلهم مثل العرب الرّحل بشبه الجزيرة العربية، ولهذا أجابوها إلى طلبها.[58]

من حصاد الفقرات سالفة الذكر، وما ورد على لسان هذه القائدة، نستنتج أنّ هذه الأرض كانت تزخر بموارد طبيعية هائلة، وإن لم تكن كذلك لما طالها التخريب على يديّ الكاهنة، فعند مطالعتنا لبعض المصادر، تؤكّد هذا الطرح، فهذا عبد الرّحمن بن زياد بن أنعم، يذكر بهذا الخصوص أنّ إفريقية بدءا من طرابلس وصولا إلى طنجة كانت ظلا وقرى متصلة، فأخربت[59] جميع ذلك.[60] وهذا ما أكّده ابن عذاري بقوله: أنّ "**إفريقية كانت ظلا واحدا من أطرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا**"، ثم ينفرد ابن عذاري بذكر هذه المسافة التي تغطيها مثل هذه العمائر، ويحدّدها بأنّها مسيرة "**ألفي ميل[61] في مثله**".[62]

لكن السّؤال المطروح، هل من المعقول أن تكون هذه المساحة الكبيرة الممتدة من بلاد إفريقية إلى ساحل البحر المحيط بمثل هذه الأوصاف التي نعتتها بها هذه المصادر؟

هذا الوصف لبلاد المغرب مبالغ فيه، فلا يمكن أن تكون هذه المساحة الشّاسعة آهلة لا بالسّكان ولا بالأراضي الزّراعية المتصلة ولا بكثافة أشجارها، وذلك إذا ما قسناه بالكثافة السّكانية التي شهدتها هذه الرّقعة الجغرافية المترامية الأطراف.

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

أما السّوال الآخر الذي يفرض نفسه، والمتمثّل في ذلك الخراب الذي أحدثته الكاهنة، فما هي أقوال المؤرّخين في هذه الفعلة التي أحدثتها ملكة البربر هذه؟

لقد أسالت هذه الحادثة الكثير من الحبر عند كلّ من أرّخ لها، فمن قائل أنّ الكاهنة هي التي أحدثت مثل هذا الخراب، ومن قائل عكس ذلك، وكان للعرب مشاركة فيه؟

تعرّض حسين مؤنس بنوع من الشّرح والتحليل، ومحاولة إقناع القارئ لهذا الطرح الذي جاء به، فيذكر ذلك في نقطتين مهمّتين، وهما على النّحو التالي:

أولا: لم تكن إفريقية بهذا العمران أثناء الفتح الإسلامي لهذه البلاد.

ثانيا: ليس من المعقول أن تقوم امرأة واحدة بتخريب هذا العمران[63] الذي لا يكاد ينقطع على مدّ البصر- على حدّ تعبير بعض المصادر- وبخاصة إذا علمنا أنّ قبيلة واحدة هي التي قامت بمساندتها في هذه العملية التخريبية.

وبعدها يقوم بإعطاء تفسير لما حدث وما ورد على لسان بعض المؤرّخين مفاده، أنّ الكاهنة كان لها يد في هذا التخريب، ولكن ليس بالقدر الذي ذكرته المصادر، إلا أنّ هذا التخريب كانت له استمرارية ولم يقف عند حدّ الكاهنة،إذ تسبّب فيه العرب نتيجة لسوء الحكم وسياسات الولاة الذين تعاقبوا على حكم البلاد، والصراع السياسي بين العرب فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين العرب لاحقا.[64]

إنّ الطرح الذي جاء به حسين مؤنس، وتفسيره لهذه الظاهرة التخريبية،تبدو للمتتبع للأحداث أنّها منطقية ومقبولة على وجه العموم، على عكس من أراد أن يلصق هذا التخريب- خطأ- إلى العرب فيما بعد، وكان من هؤلاء المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال الذي ألقى بمسؤولية التخريب وما لحق هذه البلاد من دمار شامل على العرب فقط، دون أن يعطي مبرّرا أو دليلا على ذلك.[65]

أما السّؤال الثالث الذي يطرح نفسه بشدّة، هل كان للعامل الاقتصادي الدّور الأساس في فتح العرب المسلمين لهذه الأصقاع البعيدة عن أرضهم، وليس نشر الدين كما يزعم بعضهم؟

ما قامت به الكاهنة من تخريب اقتصادي يدلّ على أنّها ربطت الفتوح الإسلامية بالعامل الإقتصادي، أي طمع العرب في خيرات البلاد المفتوحة، ولهذا قامت بعملية

التخريب حتى لا يعود العرب إلى هذه البلاد، ومن ثمّ نجد بعض المؤرخين، وكان منهم المستشرقون الذين أرجعوا الفتوح الإسلامية الأولى إلى هذا **العامل الذي اعتبروه كمحرّك أساسي لها**، فمن هؤلاء نخصّ بالذكر منهم: "**فان فلوتن**" و"**هاملتن جيب**" اللذان رأيا نفس الرّأي حينما ذكرا بأنّ الفتوح الإسلامية، هي عملية توسّعية، هدفت إلى قطف ثمار البلاد المفتوحة، وجلب الغنيمة تحت ضغط الفقر والجوع والحاجة، على حدّ قول فلوتن. هذه الغنيمة التي حرّكت الجموع نحو إفريقيا.[66]

يرى عبد العزيز غوردو، أنّ ربط الفتح الإسلامي بالعامل الإقتصادي هو أمر مرفوض بتاتا، ويرجع ذلك إلى عدّة أسباب، نخصّ بالذكر منها:

- ظروف العرب مع مجئ الإسلام لم تكن سيّئة بالفعل، أو على الأقل ليست بذلك السّوء الذي صوّره بعضهم، من أمثال فان فلوتن ورودنسون وإبراهيم بيضون.
- لا تسجّل الكتابات التاريخية المتعلّقة بالقرن الأول الهجري (7م) أيّ اكتشافات طبيّة، أو تحسّن على مستوى التغذية يسمح لنا بالقول أنّ شبه الجزيرة العربية عرفت انفجارا ديمغرافيا شكّل عبئا على الإمكانات الغذائية، كما أنّ المنطقة لم تعرف تقلّبات مناخية، الأمر الذي يؤدي إلى سوء الأوضاع الاقتصادية ممّا يؤدي إلى اندفاع موجات من الهجرات البشرية إلى مناطق أكثر رخاءً.
- إذا كانت هذه الفتوح قد تؤدي بصاحبها إلى الموت من جرّاء دخوله في معارك قد تطول، ولا يضمن لنفسه البقاء حيّا حتى يستفيد من خيرات هذه البلاد المفتوحة، فكيف يمكن لهؤلاء أن يغامروا بأنفسهم من أجل مستقبل غير مضمون.
- لو كان الاقتصاد هو الدّافع القوي الذي حرّك هذه الفتوح، لكان الغزو العربي من نوع غزوات الهانز والتتار، أو من نوع الاحتلال الرّوماني، إلاّ أنّنا نلاحظ اختلافا جذريا بينهما، فالوافدون العرب لم يأتوا كلّهم كغزاة عسكريين، فالخوارج والأدارسة على سبيل المثال جاءوا فرارا من بطش الخلافة بالمشرق، واستطاعوا تكوين دول لاقت كلّ الترحيب من طرف سكان هذه البلاد.[67]

ب- احتفاظها ببعض الأسرى بمعسكرها: من العوامل التي عجّلت باندحار الكاهنة قيام الكاهنة- بعد انتصارها على حسّان بن النّعمان- بأسر عدد من الفاتحين العرب، فبعد أن أحسنت معاملة الأسرى، قامت بإطلاق سراحهم عدا واحد هو خالد، وهذا

ما يفهم من كلام ابن عبد الحكم "**فأحسنت الكاهنة إسار من أسرته من أصحابه، وأرسلتهم إلا رجلا منهم من بني عبس، يقال له خالد بن يزيد**".[68]

إنّ احتفاظ الكاهنة بهذا الأسير كان بسبب إعجابها به، وهذا ما يفهم من كلامها عنه "**ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع**". ولهذا قامت بإرضاعه مع أولادها عن طريق وضع دقيق الشعير على ثديها، فيقوم خالد وأولادها بالأكل من ثديها.[69]

إنّ الاحتفاظ بهذا الأسير ليس فقط بسبب تلك الأوصاف التي حلّته بها الكاهنة، بل كان لغرض آخر يدخل في تكتيك هذه القائدة الداهية، فحسن معاملتها للأسرى والإبقاء عليهم أحياء كانت محاولة منها للتعرّف على أخبار العرب وأحوالهم، كما أنّ إبقاء خالد هذا في معسكرها، كان الغرض منه استمالته إلى صفّها وجعله من الأخوة التي جمعته بها مع ولديها رابطة دموية تجعله يحنّ إليها ويلبي رغباته، من هذه الرّغبات أن يصبح أحد عناصر قبيلتها، وجزءا لا يتجزأ من تركيبتها، فيأنس خالد بصحبتها هي وقومها، فتدفعه الحمية الأخوية إلى إعلام الكاهنة بنوايا حسّان بن النّعمان ومراسيه.[70]

تلك كانت نوايا الكاهنة؛ ففي أيام الحرب يجوز كلّ شيء من أجل تفادي الهزيمة والاستئثار بالنّصر، ولكن خالدا هذا خيّب أماني الكاهنة، فعوض أن يكون جاسوسا على حسّان، حدث العكس، حيث أصبح يعمل لصالح حسّان وهو قابع في معسكر الكاهنة، وهذا ما سهّل عليه هذه المهمّة الصعبة.

وعلى الرّغم من كلّ ذلك، فالكاهنة في الأخير، ونتيجة لدهائها كانت تعرف ما يدبّر ضدها في الخفاء، وهذا ما روته لنا المصادر، فمن بين ما كان يرسله خالد من أخبار إلى حسّان بن النعمان، خصّ بالذكر منها هذه النقاط:

- الكتاب الأوّل: الذي أرسله خالد جاء فيه: "**إنّ البربر متفرّقون، لا نظام لهم ولا رأي عندهم**"[71]، وهو نفس ما ورد عند الرّقيق القيرواني، حين قال: "**إنّ البربر متفرّقون ولا يتحدون**".[72]

نتيجة لذكاء الكاهنة، وأنّها كانت تعلم بما يدبّر لها، فلهذا السّبب خرجت ناشرة شعرها، وهي تقول: "**ويلكم مضى ملككم فيما يأكله النّاس**"، وكان هذا الكتاب مدفون في خبز.[73]

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

- الكتاب الثاني: بما أنّ النّار أحرقت ما كان موجودا في الخبز، فلم يعد ذا فائدة ترجى منه، فقد أرسل حسّان كتابا آخر وضعه في- **قربوس**- وأرسله مع بعض رجاله إلى خالد.

أما ردّ فعل الكاهنة فكان نفس ردّ الفعل الأوّل، حيث خرجت ناشرة شعرها وهي تنادي: "**ذهب ملككم في شيء من نبات الأرض وهو بين فرجين**".[74]

ج- **انقلاب السّحر على السّاحر**: ونقصد به ذلك الخراب الذي قامت به الكاهنة، إذ لم يكن من اهتمامات حسّان بن النّعمان الاستيلاء على خيرات البلاد، بل اتجهت همة الفاتحين إلى أبعد من ذلك، وهي نشر الدين الإسلامي الحنيف.

لقد كانت عملية التخريب التي قامت بها الكاهنة نقمة عليها، حيث أضرّ بقضيتها ضررا كبيرا، فإذا وجد بعض من سكان البلاد من أيّدها ضد العرب الفاتحين، وطردهم منها، فهذا لا يعني أنّها ستجد من يؤيّدها ضدّ الخراب الذي سبّبته وأضرّ كثيرا بالبربر أكثر من العرب، فإذا كان البربر قد واجهوا الفاتحين لصدّهم عن خيرات هذه البلاد، فهذه الحرب بين الطرفين لا محالة أنّها ستؤدي إلى الخراب الذي يأتي على الأخضر واليابس، فلماذا تقوم الكاهنة بعملية التخريب هذه؟

هذا العمل التخريبي أيقض همم البربر واضطرّهم إلى الاستنجاد بحسان ليخلّصهم من أعمال الكاهنة، كما أخذوا يعارضونها في قراراتها ويناجزونها، فاضطربت الأوضاع بين أيديها، وزاد الوضع سوءًا، ولما انقطع الرّجاء من الرّوم- المحتلّ السابق لبلاد المغرب- تعلّقت آمال البربر بالفاتحين المسلمين لينقذوهم من تهوّر الكاهنة، وأخذوا يستغيثون بالقائد الفاتح حسّان بن النّعمان، وهذا ما تؤكّده المصادر، حيث يذكر الرّقيق القيرواني: "**وبعثوا إليه أيضا يستغيثون به من الكاهنة فسرّه ذلك**".[75]

هذا الموقف المتغيّر للبربر أسرّ كثيرا هذا القائد، وبخاصة أنّ نظرة البربر تغيّرت اتجاه المسلمين، ففي هذه المرّة أخذوا ينظرون إلى الفاتحين كمخلّصين لهم من سطوة الكاهنة، وسياستها المتهوّرة.

هذا الخراب لم يثر غضب البربر فقط، بل أثار حفيظة الرّوم المعمّرين، لأنّها بهذا العمل قضت على المزارع التي كانوا يشرفون عليها ويستفيدون من دخلها، حيث كانت

تدرّ عليهم المال الكثير، فكانت نتيجة هذا الخراب، خراب بشري، ونقصد به هجرة عدد منهم إلى صقلية وإيطاليا، أما من تبقى منهم فحاول الاستنجاد بالقائد العربي حسّان.[76]

وبذلك نستطيع القول: "**انقلب السّحر على السّاحر**"، بمعنى أنّ الكاهنة كانت تظنّ بعملها هذا أنّها ستقوم بإبعاد العرب الفاتحين عن البلاد، وتكسب في المقابل رضا سكان البربر، لأنّ كانت تظن أنّ تكتيكها المثمّل في تخريب البلاد اقتصاديا سيكون عاملا مهما في تخليص هذه الأرض من هذا الدّخيل الجديد الذي طرق أبواب بلاد المغرب، لكن شيئا من هذا لم يقع، لأنّ غرض المسلمين الفاتحين لم يكن غرضا اقتصاديا، بل كان غرضا دينيا محضا، والمتمثّل في نشر الديانة الإسلامية بين أبناء هذه الرّقعة الجغرافية.

5- مقتل الكاهنة ونهاية أسطورة: لقد سارت الأمور كما كان يشتهي حسّان، ورأى بأنّ سياسة الكاهنة التخريبية جلبت عليها نقمة السّكان الأصليين، وهذا التذمّر وصل بهم إلى حدّ طلب يد المساعدة من العرب للرّجوع إلى البلاد وتخليصهم منها، وأبدو استعدادهم لمساعدة الفاتحين في حربهم المقبلة ضدّ الكاهنة[77].

انتهز حسّان هذه الفرصة التي لا تعوّض وسيّر حملة عسكرية لمواجهة الكاهنة مرّة أخرى، فخرج بجيش كبير إلى إفريقية، وترجع ضخامة هذا الجيش إلى انضمام عدد كبير من من البربر إلى صفوف العرب لمحاربة الكاهنة، وهذا ما يؤكّده القيرواني بقوله: "**إنّ البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم إلا أن يُعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفا، يكونون مع العرب مجاهدين**"، فلم يكن أمام هؤلاء سوى القبول بعرض حسّان[78]، وممن طالب الأمان ولدي الكاهنة، وهذا ما يفهم من تلك النّصيحة التي وجهتها لهما أمهما حين قالت: "**اركبوا واستأمنوا إليه**".[79] وهو نفس ما ذهب إليه ابن الأثير بقوله: "**امضوا إلى حسّان، وخذوا لأنفسكم منه أمانا**".[80]

لم تكن الكاهنة في هذه الجولة متأكّدة من النّصر، ولهذا السّبب نجدها أقدمت على طلب الآمان لأولادها- كما مرّ معنا- لأنّها كانت تعلم أنّها مقتولة لا محالة، وهذا ما يفهم من قولها: "**إنّما كنت تبنّيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة**".[81]وهذا ما ذكره الدباغ حين قال: إنّ الكاهنة في هذه الحرب رأت نفسها مقتولة لا محالة، وأنّها رأت

رأسها تركض به الدّواب يذهب به إلى المشرق من حيث تطلع الشّمس، كما رأته موضوعا بين يدي الملك، ملك العرب الذي بعث إليها هذا الرّجل[82] ليحاربها.[83]

هذه الحالة اليائسة التي وصلت إليها الكاهنة، جعلتها تتصرّف هذا التصرّف حينما أوكلت أمر ابنيها لحسّان، واللّذين سيكونان من أكبر المحاربين في صفوف الجيش الإسلامي، في حين كانت والدتهما في الجبهة المضادّة للفاتحين، وهذه الحالة اليائسة هي التي جعلت مقرّبيها، وكان منهم خالد الابن بالتبني أحد هؤلاء الذين نصحوها بتسليم نفسها لحسّان، فما كان موقفها من هذا الاقتراح؟

كان موقف الكاهنة من اقتراح التسليم، ردٌّ قلّما تحرّره الأقلام عبر الزّمن، وتدونّه أنامل المؤرّخين، هذا الرّد الرّائع من قائدة وملكة قد جعل موقفها هذا في مراتب لا يصلها كلّ قائد، فعندما وقعت بين فكي كماشة حسّان، ورأت بأنّ هزيمتها قريبة لا شكّ فيها، نصحها خالد بن يزيد إذا كان الأمر كذلك بقوله: "**فإذا كان هذا فارحلي بنا وخلّي عن البلاد**"، وقال لها أولادها نفس القول.[84]

يا ترى، كيف كان ردّ هذه القائدة؟ هل لبّت رغبة ناصحيها- ابنها بالتبني وأولادها؟ أم كان نتيجة هذا الحوار الذي جرى بينهما عكس ما كنّا نتوقّع؟

للإجابة على كذا تساؤل، كان لزاما علينا التعرّض إلى بعض جوانب شخصية هذه المرأة، فلم تكن مجرّد إمرأة تمثّل نساء بني جلدتها، بل كانت قائدة عسكرية يهابها قومها، وهذا ما تطلعنا عليه بعض المصادر التي أرّخت لها، وهذا ما يتضّح لنا جليّا عند سؤال حسّان بن النّعمان عمن بقي من ملوك إفريقية العظماء ليحاربهم أو يدخل في الدين الجديد، فدلّوه على إمرأة بجبل أوراس، فكلّ سكان إفريقية يهابونها ويخافون من سطوتها، وهم لها طائعون. فإن استطعت محاربته وانتصرت عليها "**دان لك المغرب كلّه**".[85] وهذا ما يؤكّده الرّقيق القيرواني بقوله: "**وجميع من بإفريقية منها خائفون والبربر لها مطيعون**".[86]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالملك الذي تربّعت على سريره كان نابعا من قوّة شخصيتها، وإلاّ لكان الحكم لغيرها من قبيلتها، حيث كان لها ثلاثة أبناء ورثوا رياسة قومهم عن أبيهم، وبما أنّ أبناءها كانوا صغارا فاستبدّت بالوضع واستغلّت الفرصة للتربّع على عرش هذه البلاد بدون منافس. إضافة إلى ذلك، فقد كانت من قبل

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

متزوّجة من أحد رؤساء قبيلة جراوة، وعند وفاته أوصى لها برئاسة القبيلة من بعده.[87]

من خلال ما تقدّم ذكره، يظهر لنا جليّا ردّ الكاهنة عندما توقّفت عجلة الانتصار لديها واقتربت من نهايتها الحتمية، أن يكون الرّد ردّ قادة شجعان لا ردّ خذلان، وهذا ما أخبرتنا به المصادر. فكان ردّها على هذا النّحو: "**كيف أرحل وأفرّ، وأنا ملكة الملوك لا تفرّ من الموت، فأقلّد قومي عارا آخر الدّهر**".[88]

إنّ ردّ الكاهنة الشّجاع لا يصدر إلاّ من قائد شجاع، وهذا ما يشهد لهذه المرأة القائدة بشجاعتها كإنسانة، لأنّها عرفت ما كانت تكنّه صدور الفاتحين من خير لسكان هذه البلاد، وفهمت العرب الفاتحين على حقيقتهم التي خالفت حقيقة الرّومان الاستعمارية.

في الأخير سيّر حسان بن النّعمان جيشه نحو الكاهنة، وكان معه عدد من البربر من فرع البتر الذي ولّى عليهم الابن الأكبر للكاهنة، وقدّم خالدا على أعنة الخيل، وفي المقابل سيّرت الكاهنة جيشا لملاقاة الفاتحين المسلمين، لكن هذه المرّة كانت الجولة لصالح حسّان، ولقيت الكاهنة حتفها بمنطقة الأوراس في مكان أصبح يدعى فيما بعد بئر الكاهنة، وعن شراسة المعركة يذكر الرقيق القيرواني ما مفاده: "**التحم القتال، واشتدّت الحرب، واستحرّ القتل في الفريقين حتى ظنّ النّاس أنّه الفناء، فانهزمت الكاهنة واتبعها حسان حتى قتلها، ونزل في الموضع الذي قتلت فيه وهو بئرها وعليه بقي رأسها، فسمى النّاس هذا البئر بئر الكاهنة**"[89].

ويروي لنا الدّباغ نفس الرّواية ولكن بنوع من التفصيل، حيث ذكر أنّ حسّان اتجه نحو الكاهنة فوصل إلى قابس، وهنا كان اللّقاء بين الجمعين إلى أن انهزمت الكاهنة وهربت تريد قلعة بِشْر[90] حتى تتمكّن من التحصّن بها، ثم اتجهت نحو جبال أوراس ومعها صنم كبير مصنوع من الخشب كانت تعبده، يُحْمَل بين يديها على جَمل.[91] ثمّ يضيف قائلا: "**فالتقى القوم ووضعوا السلاح ووقع الصبر... فانهزمت الكاهنة وقتلت عند بئر سمّاه النّاس بئر الكاهنة... ويقال إنّها قتلت عند طَبَرْقَة**".[92]

خاتمة: تلك هي قصة هذه المرأة المغربية الشجاعة، التي رُوِيت عنها الحكايات والأساطير، وإن كانت هذه الشّخصية غامضة في أحايين كثيرة، إلاّ أنّها استطاعت أن

تقود قبيلته ردحا من الزّمن إلى غاية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ومهما قيل حول هذه المرأة، فقد تعرّفت على قوم ليسوا كالأقوام الآخرين الذين عرفتهم واحتكت بهم.

هذه المرأة التي حملت السّلاح ضدّ كلّ من رام انتزاع ملكها من بين يديها، فقد رفعت سلاحها ضد الفاتحين، فكان النّصر أول الأمر حليفها، وظنّها الخاطئ اتجاه الفاتحين والذي أدى بها إلى عملية التخريب كان ظنّا خاطئا، إذ اعتبرت أنّهم ما جاءوا إلى هذه البلاد إلا طمعا في خيراتها، وهو أمر ليس بالصحيح، لكن في الأخير تيقّنت بما لا يدعو للشّك أنّ المسلمين ليسوا كغيرهم من الأقوام التي عرفتهم هذه البلاد، وإلاّ لما سمحت لنفسها في آخر المطاف أن تنصح أبناءها بأن يلجؤوا إلى حسّان، ويصبحوا من أكبر المحاربين في صفوف جنده، وبعدها دخل عدد لا يستهان به من البربر في الدين الإسلامي وحسن إسلامهم، والدليل على ذلك أنه أثناء فتح المسلمين لبلاد الأندلس كان الجيش الإسلامي يتكوّن من هؤلاء البربر الذين أظهروا بسالة منقطعة النظير في حربهم من أجل فتح الضفة الأخرى، ونتيجة للشجاعة التي كانت إحدى الخصال التي يفتخر بها البربري، فقد فضّل الحكّام المسلمون أن يعتمدوا بدرجة أكبر عليهم، وساعدوهم كثيرا في فتح العدوة الأندلسية.

تلك هي حقيقة هذه المرأة التي كتب عنها التاريخ، ودوّنها ضمن القادة العسكريين الذين يشار لهم بالبنان، هذه المرأة التي استطاعت في آخر أيامها أن تفرّق بين من يريد بهذه الأرض السوء، ومن يريد بها الخير، فعلمت في الأخير أنّ المسلمين ما أرادوا بهذه البلاد سوى نشر الدين الإسلامي بين ظهرانيهم، وما يؤكّد ذلك تصاهر العرب بعدها مع سكان هذه البلاد، واختلطت دماء العرب مع دماء البربر، وأصبحوا أمة واحدة لا يفرّق بينهم أحد، تلك هي سنة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

الهوامش:

1- ابن خلدون عبد الرّحمن بن محمد: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، اعتنى به صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدّولية، السّعودية، ص 1607.

2- ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدّولة التونسية، تونس، 1282، ص 32- مبارك بن محمد الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت، ج2، ص 30.

3- يحي بوعزيز: **الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر القديمة والوسيطة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ج1، ص 89.

4- عبد العزيز بنعبد الله: **تاريخ المغرب، العصر القديم والعصر الوسيط**، مكتبة السّلام، الدار البيضاء ومكتبة المعارف، الرّباط، د ت، ص 78.

5- إبراهيم التهامي: **جهود علماء المغرب في الدّفاع عن عقيدة أهل السُّنة "دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس"**، دار الرسالة، الجزائر، ط1، 1422هـ/2002م، ص 12.

6- عبد العزيز بنعبد الله: **المرجع نفسه**، ص 78.

7- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرّشاد،2004م، صص 48- 49.

8- ليفي بروفنسال: نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصري (للدراسات الإسلامية مدريد)، المجلد 2، العدد 1، 2، السنة 1373هـ- 1954م، ص 211.

9- عبد العزيز الثعالبي: **تاريخ شمال إفريقية من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدّولة الأغلبية**، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمّد إدريس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1407- 1987، ص 61.

10- ابن الأثير عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد: **الكامل في التاريخ**، حقّقه واعتنى به عمر عبد السّلام تَدمُري، دار الكتاب العربي، بيروت، 2012، ج3، ص 416.

11- وردت عند موسى لقبال بهذا الرّسم "**الشعبذة**". وأظنّه خطأ مطبعي.

12- موسى لقبال: **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج- سياسة ونظم-**، مطبعة البعث، قسنطينة، ط1، 1969 ص 78.

13- مبارك بن محمد الميلي: **المرجع السابق**، ج2، ص 30.

14- يحي بوعزيز: **المرجع السابق**، ج1، ص 89.

15- ما يجب الإشارة إليه بالنسبة لما ورد عند التهامي، لم يكن الغرض من تأليفه هو التأريخ للفتوح، بل اهتم المؤلّف في كتابه هذا، بذلك الصراع العقدي الذي كان موجودا بالمغرب ومحاولة أهل السّنة الدّفاع عن عقيدتهم، وإنّما وردت هذه العبارة عرضا أثناء تعرّضه باختصار للفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

16- **سورة آل عمران**: الآية، 179.---17- سورة الأنعام: الآية 50.---18- **سورة الأنعام**: الآية، 59.---19- **سورة الأنعام**، الآية، 73.

20- الرّقيق القيرواني: **تاريخ إفريقية والمغرب**، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط1، 1414هـ- 1994م، ص 46- ابن عبد الحكم: **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ت، ص 270.---21- إبراهيم التهامي: **المرجع السابق**، ص 12، وينظر هامش رقم 2.

22- هذا ما سنحاول الإجابة عنه في موضعه.---23- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغربوالأندلس**، ص 49.

24- حسين مؤنس: **المرجع نفسه**، ص 49.

25- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د ت، ص 242- وينظر هامش رقم 2 من نفس الصفحة.

26- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 242.---27- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 242.

28- وردت عند الثعالبي بهذا الرّسم "**نمّش**"، ويضيف في الهامش قوله: "**اسمها ممّش في جميع الرّوايات**"، ويشير إلى بعض المصادر، منها: الكامل في التاريخ ورياض النّفوس ومعالم الإيمان. عبد العزيز الثعالبي: **تاريخ شمال إفريقية**، ص 57.

29- ضبطه ابن الأثير على هذا النّحو: -كُسْيلَة- وهو كسيلة بن لمزم، (أو لزم عند الميلي) وهو من أكابر البربر. ابن ألأثير: **المصدر السابق**، ج3، ص 207- وينظر مبارك بن محمد الميلي: **المرجع السابق**، ج2، ص 29.

30- الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 45.

31- ابن عذاري أحمد بن محمد المراكشي: **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حقّقه وضبطه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1434هـ- 2013م، ج2، ص 61- ابن الأثير: **المصدر نفسه**، ج3، ص 415.---32- موسى لقبال: **المرجع السابق**، ص 79.---33- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 246.

34- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج2، ص 62.---35- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 246.

36- الهاء تعود على حسّان بن النّعمان.---37- الرّقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 46.

38- الهاء تعود على مدينة "باغاية".---39- الرّقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 46.

40- ابن عذاري: **المصدر نفسه**، ص 62- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج3، ص 416.

41- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، صص 246- 247. ---42- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، صص 247.

43- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج3، ص 416- عبد الرّحمن الثعالبي: **المرجع السابق**، ص 72.

44- اختلفت تسمية هذا الوادي من مؤرّخ لآخر، فابن عبد الحكم يسمّيه –**نهر البلاء**- **فتوح مصر والمغرب**، ص 270.- أما ابن الأثير، فيطلق عليه اسم -**نيني**- **الكامل في التاريخ**، ج3، ص 416- ويسمى باللّسان البربري -**بلى**- الرّقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 47.---45- الرّقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 47- وينظر موسى لقبال: **المرجع السابق**، ص 80.

46- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج2، ص 72.---47- ابن خلدون: **العبر**، ص 1607.---48- ابن عذاري: **المصدر نفسه**، ج2، ص 63.---49- ابن عبد الحكم: **المصدر السابق**، ص 270.---50- حسين مؤنس: **فتح المغرب**، ص 248.

51- ابن خلدون: **المصدر السابق**، ص 1607- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج1، ص 63.

52- نريد منها عند ابن عذاري: **المصدر نفسه**، ص 63.---53- ييأس منها العرب، عند ابن عذاري: **نفسه**، نفس الصفحة.

54- الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 48.---55- أما التخريب الثاني، فكان على أيدي الهلاليين.

56- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب**، ص 50.---57- أحمد مختار العبادي: **في تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، د ت، ص 44.---58- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 252.

59- التاء تعود على الكاهنة.

60- الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 48.

61- الميل: يساوي 400 ذراع شرعية، ويساوي 3/1 فرسخ. فالتر هنتس: **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970م، ص 95. والميل هو 4000 خطوة، فتكون الخطوة 72.173 سم. محمود الجليلي: **المكاييل والأوزان والنقود العربية**، دار العلم للملايين، لبنان، 2005م. ص 45- إبراهيم رجب: ألفاظ الحضارة في القرن الرابع الهجري، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2003م، ص 216.

62- ابن عذاري: **المصدر نفسه**، ج1، ص 63.---63- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب**، ص 50.

64- حسين مؤنس: **المرجع نفسه**، ص 50.

65 -Lévi-provençal, ¨un Nouveau, Récit de la Conquête de L'Afrique de Nord par les Arabes¨, Arabica, I. 1945, pp. 32-33.

نقلا عن عبد الواحد ذنون طه: **الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس**، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004، ص 124.

66- عبد العزيز غوردو: **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب "جدلية التمدين والسلطة"**، ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ط2، 2011، ص 20.

67- عبد العزيز غوردو: **المرجع نفسه**، صص 21- 22.

68- ابن عبد الحكم: **المصدر السابق**، ص 270- ابن الأثير: **المصدر السابق**، ص 416.

69- الرقيق القيرواني: **المصدرالسابق**، ص 47- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج1، ص 63.

70- حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 251.

71- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج1، ص 64.

72- الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 48.

73- الرقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 48. ابن عبد الحكم: **المصدر نفسه**، ص 270.

74- الرقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 48. ابن عبد الحكم: **المصدر نفسه**، ص 270.

75- الرّقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 49.- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 253- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب**، ص 49.

76- أحمد مختار العبادي: **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص 44.

77- عبد الواحد ذنون طه: **الفتح والاستقرار**، ص 124.

78- الرقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 49.

79- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج1، ص 64.

80- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج3، ص 417.

81- ابن عبد الحكم: **المصدر السابق**، ص 271.

82- المقصود بالرّجل، هو حسّان بن النّعمان.

83-الدّباغ عبد الرّحمن بن محمد الأنصاري: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، أكمله وعلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، 1968، ج1، ص 66- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج1، ص 64.

84- الرّقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 49.

85- ابن عذاري: **المصدر السابق**، ج1، ص 62.

86- الرّقيق القيرواني: **المصدر السابق**، ص 46- الدباغ: **المصدر السابق**، ج1، ص 61- وينظر المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد: **رياض النفوس في طبقات علماءالقيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، حققه بشير البكوش وراجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1414هـ- 1994م، ج1، ص 50.

87- حسين مؤنس: **فتح العرب للمغرب**، ص 243.

88- الرّقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 49- ج1، ابن عذاري: **المصدر نفسه**، ص 64.

89- الرقيق القيرواني: **المصدر نفسه**، ص 49- ابن عذاري: **المصدر نفسه**، ج1، ص 64- ابن عبد الحكم: **المصدر السابق**، ص 271. اما ابن الأثير، فيذكر بخصوص أولاد الكاهنة، أنّ حسان قام بقتلهم، وهذا ما يفهم من كلامه حين قال: "**قاتلها فهزمها، وقتلها وقتل أولادها، وعاد إلى القيروان**". ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج3، ص 418.وهذا خلاف لما ورد في المصادر التي أرّخت لهم، أنّ أبناءها انظموا إلى حسان وجيشه.

90- وردت عند المالكي بهذا الرسم **بسر**، **رياض النفوس**، ج1، ص 54، ومحقق كتاب المعالم يوافق على هذا الرّسم، معلّقا على ذلك بقوله: أنّها نسبة إلى من فتحها وهو**بسر بن ابي أرطأة العامري**. المالكي: **المصدر نفسه**، هامش 212، ص 54، وينظر عنها البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: **المسالك والممالك**، حققه ووضع فهارسه جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ- 2003م، ج2، ص 329.

91- الدباغ: **المصدر السابق**، ج1، ص 65- 66- الحميري محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 66.

92- الدباغ: **المصدر نفسه**، ج1، ص 66.